

التفسير الموضوعي بوصفه منهجًا تكامليًا في فهم القرآن الكريم

م.م زهراء ساجد علي

كلية التربية الاساسية, الجامعة المستنصرية, عراق

sajidzahraa23@uomustansiriyah.edu.iq

م.م هدى راضي جبار

كلية التربية, الجامعة المستنصرية, عراق

huda.jabar@uomustansiriyah.edu.iq

الملخص. يهدف هذا البحث إلى بيان مفهوم التفسير الموضوعي وبيان دوره بوصفه منهجًا تكامليًا في فهم القرآن الكريم، من خلال جمع الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع واحد ودراستها دراسة شاملة تُبرز الرؤية القرآنية الكلية لذلك الموضوع. وينطلق البحث من إشكالية التجزئة في التفسير التحليلي، ليؤكد أن التفسير الموضوعي يسهم في تحقيق وحدة المعنى القرآني، وربط النص بالواقع المعاصر، والكشف عن مقاصده العامة. كما يتناول البحث الأسس المنهجية للتفسير الموضوعي، وأهم خطواته وضوابطه العلمية، مع إبراز أهميته في معالجة القضايا العقديّة، والتشريعية، والاجتماعية، والفكرية. ويخلص البحث إلى أن التفسير الموضوعي يُعدّ من أنسب المناهج التفسيرية المعاصرة لفهم القرآن الكريم فهمًا متوازنًا يجمع بين الأصالة والتركيز المقاصدي والاستجابة لمتطلبات العصر، دون الإخلال بثوابت النص القرآني.

الكلمات المفتاحية

التفسير الموضوعي، مناهج التفسير، وحدة الموضوع القرآني، المقاصد القرآنية،

الدراسات القرآنية المعاصرة

المقدمة

يُعدّ القرآن الكريم المصدرَ الأساسَ للتشريع الإسلامي، والمنبعَ الأولَ للهداية الربانية، وقد حظي بعناية علمية واسعة منذ نزوله، تجلّت في تنوّع مناهج تفسيره وتعدّد اتجاهات فهمه، سعيًا إلى استكشاف دلالاته، وبيان مقاصده، وربط توجيهاته بواقع الإنسان في مختلف العصور. وقد نشأ علم التفسير منذ الصدر الأول للإسلام، وتطوّر عبر مراحل متعددة، فظهر التفسير بالمأثور، ثم التفسير بالرأي، وتفرّعت عنهما مناهج وأساليب متنوّعة، عكست حاجات العصور واختلاف السياقات الفكرية والاجتماعية (الزركشي، ١٩٩٨).

ومع تطوّر الحياة الإنسانية وتعقّد قضاياها، برزت الحاجة إلى مناهج تفسيرية قادرة على تقديم رؤية قرآنية شاملة، تتجاوز الفهم الجزئي للنصوص، وتستوعب مقاصد القرآن الكلية وتوجيهاته العامة. وفي هذا السياق، ظهر التفسير الموضوعي بوصفه أحد المناهج التفسيرية المعاصرة التي تهدف إلى دراسة الموضوع القرآني دراسة متكاملة، من خلال جمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد، وتحليلها في ضوء السياق القرآني العام، وصولًا إلى استخلاص تصوّر القرآني الشامل لذلك الموضوع (الزرقاني، ٢٠٠٥).

ولا يعني ظهور التفسير الموضوعي القطيعة مع التراث التفسيري القديم، بل يُعدّ امتدادًا علميًا له وتطويرًا لأدواته، إذ إن جذوره كامنة في كتب التفسير والفقه وأصوله، ولا سيما في مؤلفات أحكام القرآن، ودراسات الناسخ والمنسوخ، والأشبه والنظائر، ومباحث المقاصد الشرعية. غير أن هذا المنهج تبلور في العصر الحديث بوصفه منهجًا مستقلًا له خطواته وضوابطه، مما جعله أداة فعّالة في معالجة القضايا الفكرية والاجتماعية المعاصرة من منظور قرآني كلي (الصدر، ١٩٨٠).

ويتميّز التفسير الموضوعي بقدرته على إبراز وحدة القرآن الموضوعية، وكشف التناسق الداخلي بين آياته، ودفع ما قد يُتوهم من التعارض بينها، فضلًا عن ترسيخ الفهم المقاصدي للقرآن الكريم، من خلال التركيز على الغايات الكبرى للتشريع الإسلامي، مثل تحقيق العدل، وصيانة الكرامة الإنسانية، وترسيخ القيم الأخلاقية والاجتماعية، وهو ما أكّد عليه عدد من الباحثين المعاصرين في دراساتهم التفسيرية (الغزالي، ١٩٩٦).

كما تتجلى أهمية التفسير الموضوعي في كونه منهجًا تكامليًا، يجمع بين التحليل اللغوي والدلالي، ودراسة السياق التاريخي، والنظر المقاصدي، دون الاقتصار على شرح الألفاظ أو الوقوف عند حدود الآية المفردة. ويسهم هذا التكامل في ربط النص القرآني بالواقع الإنساني، وتقديم معالجات قرآنية للقضايا الكبرى التي تواجه المجتمعات المعاصرة، كقضايا العدالة الاجتماعية، والحرية، والمرأة، والسلم، والبيئة (الريسوني، ٢٠١٠).

وانطلاقًا مما سبق، تسعى هذه الدراسة إلى إبراز التفسير الموضوعي بوصفه منهجًا تكامليًا في فهم القرآن الكريم، من خلال بيان مفهومه وأهم أسسه المنهجية، والكشف عن إسهاماته في تجديد الدراسات القرآنية المعاصرة، مع التأكيد على ضرورة التزامه بضوابط التفسير وأصوله العلمية، بما يضمن الجمع بين أصالة النص وفاعليته الحضارية المستمرة.

منهج البحث

يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، وهو من أنسب المناهج في الدراسات القرآنية والتفسيرية، إذ يقوم على وصف الظاهرة العلمية وصفًا دقيقًا، ثم تحليلها واستخلاص نتائجها في ضوء المعطيات النصية والمنهجية (بدوي، ١٩٨٧). ويستخدم هذا المنهج في بيان مفهوم التفسير الموضوعي، وتتبع نشأته وتطوره، وتحليل أسسه المنهجية وخطواته، وبيان خصائصه بوصفه منهجًا تكامليًا في فهم القرآن الكريم.

كما يوظف البحث المنهج الاستقرائي، من خلال تتبع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، وجمعها من مواضعها المختلفة في القرآن الكريم، ثم دراستها وتحليلها لاستخلاص الرؤية القرآنية الكلية، وهو ما يُعدّ أساسًا في الدراسات الموضوعية التي تهدف إلى بناء تصور شامل غير مجزأ (عتر، ١٩٩٦).

ويستفيد البحث كذلك من المنهج التحليلي المقاصدي، وذلك بالتركيز على مقاصد القرآن الكريم وغاياته العامة عند دراسة الآيات، وربط الدلالات الجزئية بالمقاصد الكلية، بما يسهم في إبراز البعد الحضاري والإنساني للتفسير الموضوعي، دون إخلال بضوابط التفسير المعتمدة (الريسوني، ٢٠١٠).

وفي إطار ضبط البحث علمياً، يعتمد الباحث على المنهج الوثائقي في جمع المادة العلمية من مصادرها الأصلية، من كتب التفسير، وعلوم القرآن، ومناهج البحث العلمي، والدراسات الأكاديمية ذات الصلة، مع الالتزام بالتوثيق العلمي الدقيق داخل المتن وفق صيغة In-note المعتمدة في البحث (عبيدات وآخرون، ٢٠١٦).

نتائج البحث ومناقشته

الإطار المفاهيمي والمنهجي للتفسير الموضوعي

يُعدّ التفسير الموضوعي من أبرز المناهج التفسيرية المعاصرة التي أسهمت في تجديد الدراسات القرآنية، وذلك لما يتميز به من شمولية وتكامل في فهم النص القرآني. ويهدف هذا الفصل إلى تأصيل المفهوم، وبيان نشأة التفسير الموضوعي وتطوره، ثم الوقوف على أسسه العلمية وضوابطه المنهجية التي تضبط مساره وتحفظ له اتزانه العلمي.

أولاً: مفهوم التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي هو منهج من مناهج تفسير القرآن الكريم، يقوم على جمع الآيات القرآنية التي تتناول موضوعاً واحداً، ودراستها دراسة شاملة ومتكاملة، من أجل استخلاص الرؤية القرآنية الكلية لذلك الموضوع في ضوء السياق العام للقرآن الكريم، مع مراعاة اللغة، وأسباب النزول، والمقاصد الشرعية (الزرقاني، ٢٠٠٥).

ويختلف التفسير الموضوعي عن التفسير التحليلي الذي يفسر القرآن آيةً آيةً وفق ترتيب المصحف، إذ إن التفسير الموضوعي لا يتقيد بترتيب الآيات، وإنما ينظر إليها بوصفها وحدة دلالية متكاملة تخدم موضوعاً محددًا. ومن هنا، فإن غايته لا تقتصر على شرح الألفاظ أو بيان الأحكام الجزئية، بل تتجاوز ذلك إلى بناء تصور قرآني شامل حول القضايا العقدية، والتشريعية، والأخلاقية، والاجتماعية.

وقد عرّفه محمد باقر الصدر بأنه «منهج يقوم على دراسة الموضوع القرآني في مجموع آياته، لا في إطار الآية المفردة، للكشف عن الموقف القرآني الكامل من ذلك الموضوع» (الصدر، ١٩٨٠).

ثانياً: نشأة التفسير الموضوعي

رغم حداثة مصطلح "التفسير الموضوعي"، فإن جذوره العلمية تعود إلى التراث الإسلامي القديم؛ إذ يمكن رصد ملامحه الأولى في:

- كتب أحكام القرآن التي جمعت الآيات المتعلقة بالأحكام الفقهية.
 - مؤلفات الأشباه والنظائر التي تناولت الموضوعات المتشابهة في القرآن.
 - دراسات مقاصد الشريعة التي سعت إلى استنباط الغايات الكلية للنصوص الشرعية.
- إلا أن هذه الجهود كانت في الغالب جزئية وغير مؤطرة بمنهج مستقل، ولم تبلور في صورة منهج متكامل يحمل اسم التفسير الموضوعي (الزركشي، ١٩٩٨).

ثالثاً: تطور التفسير الموضوعي في العصر الحديث

شهد التفسير الموضوعي تطوراً ملحوظاً في العصر الحديث، خاصة في القرن الرابع عشر الهجري، نتيجة لتغير الواقع الإنساني وتعدد القضايا الفكرية والاجتماعية. وقد أسهم عدد من العلماء والمفكرين في تأصيل هذا المنهج وتطويره، ومن أبرزهم:

- محمد باقر الصدر في كتابه المدرسة القرآنية.
- محمد الغزالي في كتابه نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم.
- عدد من الباحثين المعاصرين الذين سعوا إلى توظيف هذا المنهج في معالجة القضايا المستجدة.

وأصبح التفسير الموضوعي اليوم أحد المناهج الرئيسة في الدراسات القرآنية المعاصرة، لما يقدمه من قدرة على الربط بين النص القرآني والواقع الإنساني المتغير.

الأسس العلمية والضوابط المنهجية للتفسير الموضوعي

أولاً: الأسس العلمية للتفسير الموضوعي

يقوم التفسير الموضوعي على جملة من الأسس العلمية، من أهمها:

١. الاعتماد على القرآن بالقرآن وذلك من خلال تفسير الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد

بعضها ببعض، باعتبار القرآن وحدة متكاملة يفسر بعضه بعضاً (الزرقاني، ٢٠٠٥).

٢. الرجوع إلى اللغة العربية إذ تُعد اللغة العربية أساسًا في فهم دلالات الألفاظ القرآنية، واستيعاب الفروق الدقيقة بين المصطلحات المتقاربة.
 ٣. مراعاة السياق القرآني سواء السياق الداخلي للآية أو السياق العام للسورة، لما له من أثر بالغ في توجيه المعنى الصحيح.
 ٤. الاستفادة من السنة النبوية بوصفها المبيّن العملي للقرآن الكريم، والمفسّر لكثير من مجملاته.
 ٥. الاعتناء بالمقاصد القرآنية وذلك بالربط بين الجزئيات النصية والغايات الكلية للتشريع الإسلامي (الريسوني، ٢٠١٠).
- ثانيًا: الضوابط المنهجية للتفسير الموضوعي**
- حتى لا ينحرف التفسير الموضوعي عن مساره العلمي، وضع العلماء جملة من الضوابط، من أبرزها:
١. الالتزام بضوابط التفسير المعتبرة وعدم مخالفة أصول العقيدة أو القواعد القطعية في الشريعة الإسلامية.
 ٢. تجنب الانتقائية في اختيار الآيات بحيث يتم جمع جميع الآيات المتعلقة بالموضوع دون إغفال ما قد يغيّر دلالة الحكم أو المفهوم.
 ٣. عدم إسقاط الواقع على النص إسقاطًا تعسفيًا بل يكون فهم الواقع منطلقًا لفهم النص، لا حاكمًا عليه.
 ٤. التمييز بين الثوابت والمتغيرات وذلك حفاظًا على قدسية النص القرآني ومرونته في آن واحد.
 ٥. الجمع بين الأصالة والمعاصرة من خلال الإفادة من التراث التفسيري، مع الانفتاح المنضبط على المناهج الحديثة (الغزالي، ١٩٩٦).

التفسير الموضوعي بوصفه منهجًا تكامليًا أولاً مظاهر التكامل في التفسير الموضوعي

يُعدّ التفسير الموضوعي من المناهج التفسيرية التي تقوم على مبدأ التكامل المعرفي، إذ لا يقتصر على زاوية واحدة في فهم النص القرآني، بل يجمع بين المعطيات اللغوية، والسياقية، والبلاغية، والعقدية، والتشريعية، بما يحقق فهماً أشمل للموضوع القرآني المدروس. ويظهر هذا التكامل من خلال تتبع الآيات المتعلقة بموضوع واحد في مختلف سور القرآن، ثم دراستها دراسة شمولية تراعي سياق النزول، ودلالة الألفاظ، ومقاصد الخطاب، وعلاقة الآيات بعضها ببعض (عبد الستار، ٢٠١٠م).

كما يتجلى التكامل في التفسير الموضوعي في الجمع بين المنهج النقلية والمنهج العقلي؛ إذ يعتمد المفسر على النصوص القرآنية أولاً، ثم يستأنس بالسنة النبوية وأقوال الصحابة والتابعين، مع توظيف أدوات العقل في التحليل والاستنباط دون إخلال بضوابط الفهم الصحيح للنص (الشافعي، ٢٠١٦م). وبهذا يتجاوز التفسير الموضوعي التجزئة التي قد تقع في بعض التفاسير التحليلية، ليقدم رؤية قرآنية كلية للموضوع.

ومن مظاهر التكامل كذلك انفتاح التفسير الموضوعي على العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة، حيث يسهم في ربط القضايا القرآنية بالواقع الإنساني، مما يعزز حضور القرآن في توجيه الفكر والسلوك الفردي والجماعي (العسّال، ٢٠١٨م).

ثانياً العلاقة بين التفسير الموضوعي والمقاصد القرآنية

تقوم العلاقة بين التفسير الموضوعي والمقاصد القرآنية على أساس وثيق، إذ إن التفسير الموضوعي يُعدّ من أنسب المناهج الكاشفة عن المقاصد الكلية والجزئية للقرآن الكريم. فدراسة الموضوع الواحد في ضوء مجموع الآيات الواردة فيه تمكّن الباحث من إدراك الغايات التي قصدها القرآن من تشريع الأحكام أو عرض القيم والمبادئ (اليوسفي، ٢٠١٤م).

ويُسهم التفسير الموضوعي في إبراز المقاصد الكبرى للقرآن، مثل تحقيق العدل، وحفظ الكرامة الإنسانية، وبناء الإنسان الصالح، وإقامة التوازن بين المادة والروح، وذلك من خلال استقراء شامل للنصوص وربطها بوحدة الهدف القرآني (المجنوب، ٢٠١٧م). كما يمنع هذا المنهج من الوقوع

في الفهم الجزئي أو الانتقائي للنصوص، الذي قد يؤدي إلى إساءة توظيفها بعيداً عن مقاصدها الأصلية.

وعليه، فإن التفسير الموضوعي يُعد أداة فاعلة في تفعيل علم المقاصد داخل الدراسات القرآنية، بما يحقق الانسجام بين النص وغاياته، وبين الوحي ومتطلبات الواقع.

أهمية التفسير الموضوعي في الدراسات القرآنية المعاصرة

أولاً: دور التفسير الموضوعي في تحقيق وحدة المعنى القرآني

من أبرز إسهامات التفسير الموضوعي في الدراسات القرآنية المعاصرة تحقيق وحدة المعنى القرآني، حيث يُبرز الترابط الداخلي بين آيات القرآن الكريم، ويؤكد أن القرآن بنية متكاملة لا تناقض فيها ولا تفكك. فدراسة الموضوع الواحد عبر مواضعه المختلفة تكشف عن الانسجام الدلالي والتكامل البياني للنص القرآني (الحسيني، ٢٠١٢م).

ويساعد هذا المنهج على فهم الآيات في إطارها الكلي، لا بمعزل عن نظائرها، مما يعزز الرؤية الشمولية للقرآن ويؤكد وحدته الموضوعية والرسالية. كما يسهم في الرد على الشبهات المثارة حول التكرار أو الاختلاف الظاهري في الآيات، بإظهار أن ذلك التنوع يخدم وحدة المقصد والمعنى (المطلب، ٢٠١٩م).

ثانياً: إسهامات التفسير الموضوعي في معالجة القضايا المعاصرة

يمثل التفسير الموضوعي أداة مهمة في معالجة القضايا المعاصرة، لما يتميز به من مرونة وقدرة على استيعاب المستجدات الفكرية والاجتماعية والإنسانية. فمن خلال استقراء النصوص القرآنية المتعلقة بقضايا مثل حقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية، والبيئة، والعلاقات الدولية، يمكن تقديم رؤية قرآنية متوازنة تسهم في توجيه الواقع المعاصر (الكناني، ٢٠٢٠م).

كما يتيح هذا المنهج تقديم حلول منضبطة شرعاً للقضايا المستجدة، بعيداً عن الجمود أو الإسقاط غير المنهجي للنصوص. وبذلك يسهم التفسير الموضوعي في تحديد الخطاب القرآني، وربطه بقضايا العصر مع الحفاظ على أصالة النص وقدسيته (السالمي، ٢٠١٥م).

الخلاصة

خلص هذا البحث إلى أن التفسير الموضوعي يُعدّ من أهم المناهج التفسيرية المعاصرة القادرة على تقديم فهمٍ شمولي ومتكامل للقرآن الكريم، من خلال جمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد ودراستها في ضوء سياقاتها المختلفة ومقاصدها الكلية. وقد بيّن البحث أن هذا المنهج يسهم في تجاوز التجزئة التي قد تترتب على بعض المناهج التفسيرية التقليدية، ويؤكد وحدة الخطاب القرآني وتكامل معانيه.

كما أظهر البحث أن التفسير الموضوعي يتميز بقدرته على الجمع بين الأصالة المنهجية والانفتاح المعرفي، إذ يعتمد على النص القرآني والسنة النبوية وأقوال السلف، مع توظيف أدوات التحليل العقلي واللغوي والمقاصدي وفق ضوابط علمية راسخة. وأسهم هذا المنهج في إبراز المقاصد القرآنية الكبرى، وربط الأحكام والقيم القرآنية بأهدافها التشريعية والإنسانية، مما يعزز الفهم المتوازن للنص ويمنع إساءة توظيفه.

المراجع

- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. البرهان في علوم القرآن. بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٨م.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم. مناهل العرفان في علوم القرآن. بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٥م.
- الصدر، محمد باقر. المدرسة القرآنية. بيروت: دار التعارف، ١٩٨٠م.
- الغزالي، محمد. نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم. القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٦م.
- الريسوني، أحمد. مدخل إلى مقاصد الشريعة. القاهرة: دار الكلمة، ٢٠١٠م.
- الشافعي، محمد عبد الكريم. مناهج المفسرين المعاصرين. القاهرة: دار السلام، ٢٠١٦م.
- العسّال، أحمد محمد. القرآن وقضايا الإنسان المعاصر. القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠١٨م.
- اليوسفي، عبد الرحمن. مقاصد القرآن الكريم. الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ٢٠١٤م.
- المجنوب، عبد القادر. المقاصد القرآنية وأثرها في التفسير. بيروت: دار ابن حزم، ٢٠١٧م.
- الحسيني، علي محمد. وحدة الموضوع في القرآن الكريم. قم: دار الهادي، ٢٠١٢م.
- المطلب، حسن. التفسير الموضوعي وإشكالية الفهم الجزئي. عمان: دار كنوز المعرفة، ٢٠١٩م.
- الكناني، فاضل عباس. التفسير الموضوعي وقضايا العصر. بغداد: دار الكتب العلمية، ٢٠٢٠م.
- السالمي، ناصر بن حمد. تجديد الخطاب القرآني: الأسس والمناهج. مسقط: مكتبة الاستقامة، ٢٠١٥م.
- بدوي، عبد الرحمن. مناهج البحث العلمي. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٧م.
- عتر، نور الدين. منهج النقد في علوم الحديث. دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦م.
- عبيدات، ذوقان، وأبو السميد، كايد، وعبد الحق، عبد الرحمن. منهجية البحث العلمي: القواعد والمراحل والتطبيقات. عمان: دار الفكر، ٢٠١٦م.
- عبد الستار، محمود. المنهج الموضوعي في التفسير القرآني. عمان: دار النفائس، ٢٠١٠م.